

جولة في المجلات

مؤتمر اورشليم الاسلامي - النشر الجماهيري

مؤتمر اورشليم الاسلامي

كتب تياردا (F. Taillardat) في مجلة « آية الفرنسية » (L'Asie Française, Février 1932, p. 54-57) بحثاً ملخصاً عن المؤتمر الاسلامي الذي عُقد في ٧ كانون الاول الثالث في القدس الشريف . فذكر اسباب فشله واداً اياها الى غاية المؤتمرين المزدوجة : اي البحث في اعادة الخلافة ، وانشاء جامعة اسلامية في القدس تقوم مقام الأزهر . وقال ان هذه الناية لم تُعرف حتى صاج الرأي العام الاسلامي على المؤتمرين ، شكاً في حسن نياتهم ، نائياً اعمالهم الى ارضاء الاجانب والرغبة في تحويل الناصبة الاسلامية الى مدينة تحت الانتداب الانكليزي . ولم تكن حكومة من الحكومات الاسلامية للدعوة الى المؤتمر كفرنانتان ومصر واليمن والمجاز ونجد والعراق ، وغير الدعوة كسائر حكومات الشرق الاسلامي لتتظر بين الرضى الى انعقاد المؤتمر . وكان يمد المسلمين في قسنتهم غيب جرائد تركية وبلاد السوفيت خاصة . وقد نشر الكتاب مقتطفات من هذه الصحف تظهر كلها مآسة للمؤتمر ، دالة على اصابع اليائسة الاجنبية الرامية الى السيطرة على المسلمين بواسطة اعادة الخلافة . وختم مقاله قائلاً :

« لقد فشل المؤتمر . وان هو لم يصادف النجاح ايضاً في مسألة انشاء الجامعة ، فلأن هذا المشروع ظهر سياسياً قبل كل شيء . غايته نشر دعاية لم تكن لتمزتها القاهرة ولا مكة ولا استامبول .

« وقد شعر العالم الاسلامي شعوراً غريزياً ان مشروع المفتي اذا نجح يرجع به الى الاسلام القديم . ففشل المؤتمر فشلاً تاماً .

« ونحن اذا طوحننا من المؤتمرين الثانية والثمانين مندوباً المجتمعين من فلسطين ومن شرقي الاردن وكلهم من احلاف المفتي ، لا يبقى الا نحو الحسين من مندوبي الاجانب . وفضلاً عن ذلك يجب ان نذكر ان الكثير من هؤلاء ايضاً لا يمثلون الا شخصيتهم فحسب . وقد بلغ من قسطن الرجال يوم افتتاح المؤتمر ان مريدبه كانوا يفتشون في جميع أنحاء اورشليم عن مسلمين اجانب ليجعلوهم مندوبين عن الانحاء الاسلامية المختلفة . من ذلك الحادث الجدير بالانتباه الذي ذكره فيلنسكي (Vilensky) عن مندوب « البلاغ » ،

وهو انه ذهب الى ادارة المؤتمر ليطلب تذكرة للحضور بصفة كونه صحافياً .
 وشد ما كان اندهاله اذ رأى نفسه يترقى حالاً الى درجة مندوب ، ويملن
 باسمه بمبئلاً القطر المصري .

« واذا تذكرنا اخيراً ان نحو العشرين من المندوبين الاجانب تركوا المؤتمر
 بعد جلسته الافتتاحية ، نصل الى النتيجة التالية وهي : ان الرغبات التي نشرها
 المؤتمر كقاطعة البضائع والمحصولات اليهودية في البلدان الاسلامية ، وطرح
 قرار لجنة جمية الامم في ما خص المبكى ، وتأليف جمية تبشيرية من المرسلين
 غايتها شرح الاسلام ونشره ، لم يقرها الا نحو الثلاثين من الافراد اجتمعوا في
 جمية صداقة لا صفة شاملة لها .

« وبعد ان اثار المؤتمر الاسلامي المناظرات الحامية ، ختم جلساته وسط
 الاعراض العام . فكان فشله تاماً . ولم يكن بالامكان ان يحدث غير
 ذلك اذا اعتبرنا التطور الحالي في العالم الاسلامي .»

النثر الجاهلي

جاء في مجلة المجمع العلمي العربي (كاتون الثاني - شباط ١٩٣٢ ص : ١١٥) بنوران
 « آراء وافكار : النثر الجاهلي » وبدون توقيع :

بعد ان سكنت الضوضاء التي احدثتها الاستاذ طه حين حول « الشعر
 الجاهلي » منذ بضع سنين قامت اليوم ضجة أخرى حول « النثر الجاهلي »
 احدثها تلميذه الدكتور زكي مبارك . فقد نشر في جريدة « البلاغ » المصرية
 منذ حين مقالات بعنوان « النثر الجاهلي » و « نشأة النثر الفني » حرك بها من
 اقلام كبار كتاب الادب في مصر فانثروا لتأييده في بعض ما ذهب اليه
 ومعارضته في بعضه . وقد احببنا ان ننشر خلاصة من هذا الموضوع الجم
 الفائدة الطريف الاثر في آدابنا العربية :

افتتح الدكتور مبارك مقاله بهذا السؤال :

« هل كان للعرب نثر فني في عصور الجاهلية ؟ وهل كانوا يفصحون عن

اغراضهم بغير الشعر والخطب والامثال ؟ »

واجاب على ذلك مخظناً اولاً من قال ان العرب قبل الاسلام لم يكن

لهم وجود ادبي ولا سياسي . وقائل هذا القول اها مسلم يرى ان الاسلام هو الذي خلق العرب وتقلهم من الظلمات الى النور ، او مؤرخ يشك في ما اثر عن العرب من الآثار الادبية . ومنهم من غلا فزعم ان عرب الجاهلية كانوا يعيشون عيشة اولية وهذه الحالة لا تسمح لهم بتولّد النثر الفني فيهم . وصاحب هذا الرأي هو الميوسرسيه وشايمه عليه الدكتور طه حسين . ويراد بالنثر الفني ما يلجأ اليه الرجل لأذاعة فكرة او دفع شبهة او ايضاح مشكلة . واستبعد الدكتور مبارك ان يكون للامم التي تجاور العرب كالفرس واليونان وغيرهم نثر فني قبل الميلاد باكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر مثله بعد الميلاد بخمسة قرون

قال والدليل على خطأهم في ذلك ان القرآن اشار الى انه كانت لدى العرب كتب تدرس وكتابة تمارس بدليل آية « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك » فالنثر الفني كان موجوداً ، وكان يُكتب ويتداول وعدم وصوله الينا لا يقتضي عدم وجوده . فهو قد وضاع لاسباب : اهمها شيوع الامية وقلة التدوين في الجاهلية ، وبعد نثرهم عن الحياة الاسلامية التي حدثت بتزول القرآن .

وبعد ان اثبت الدكتور مبارك وجود النثر الجاهلي على هذه الصورة عاد يبحث عن طريق يثبت به كيف كان نثرهم الفني ؟ وما هو أسلوبه ؟ وما هي الاتجاهات العقلية التي كان يرمي اليها كاتبو ذلك النثر في ذلك العصر ؟ فذهب الى ان النصوص المروية كأسجاع الكهان وعظات الخطباء وخطب الوفود لا تكفي لتمين اساليب النثر الجاهلي . وهي على قاتها بما وُضع في العصر الأموي لاغراض دينية او سياسية او قومية اي بيان فضل العرب . وبعد ان افاض في اثبات رأيه هذا قال : والنتيجة اننا لا نستطيع ان نمطي النثر الفني الجاهلي لونا نطمئن اليه ما دمنا لم نظفر بنصوص صحيحة منه ، اما ما روي من تلك النصوص فهو منحول مغتلق . وهذا الشر الجاهلي ارتابوا في صحة اكثره مع ان الشر يسهل حفظه ويعتني بروايته فكيف بالنثر وهو ليس بهذه المثابة .

فاذا لم تكن النصوص المرورية كافية في تمييز أسلوب النثر الفني فما هو الشيء الذي يثبت لنا ذلك ؟

اجاب الدكتور مبارك بانه القرآن . وبديهي ان رأيه هذا فيه مفاجأة حادة يصب التسليم بها على كثير من الباحثين المسلمين . ولذا تفرّ اتجاه هذا البحث الى المترع الديني بمد ان كان ادبياً محضاً . فرد على الكاتب طائفة من ائبل كتاب مصر امثال الاساتذة محمد عبد المطلب (رحمه الله) و محمد لطفي جمعة وفريد وجدي . ولا يخفى ان القرآن في اعتقاد المبلمين وحي "الهي" ، فكيف يقول الدكتور انه نثر جاهلي .

وقد اجاب على هذا بان اتخاذه القرآن نموذجاً للنثر الجاهلي لا يلزم منه نفي ان يكون القرآن وحيأ الهياً كما لا يلزم منه ان لا يكون كذلك . وكل ما يريد اثباته هو ان أسلوب النثر الفني الجاهلي إن غقدنا نصوصه الاصلية الجاهلية فانتا زاه مصوراً وممثلاً في آيات القرآن التي ضربت على غرار ذلك النثر وهي تعطينا صورةً صحيحةً عنه . لانها تزات لهداية ارنسك الجاهلمين وارشادهم . ولا يمكن ذلك الا بمخاطبتهم بما يفهمون من الكلام والاساليب وقد صرح القرآن بان الرسول لا يُرسل الا بلسان قومه ليعين لهم . ولا معنى لهذا الا ان القرآن مفرغ في اساليب العرب النثرية الفنية حتى يتيسر فهمهم لها فيستردوا بها . وكأن الدكتور يقول هذا كل ما أريده من قولي ان القرآن نموذج للنثر الفني الجاهلي . اما كونه كلام الله لا كلام البشر او بالعكس فليس من مباحث الادب التي نحن في صدها . وقد تهكم الدكتور باستاذه طه حسين الذي قال ان القرآن « لا هو شعر ولا هو نثر وانما هو قرآن » . ثم ختم مقاله بقوله « واخلاصة ان القرآن نثر ، وانه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فني قبل الاسلام . فكان لهم بذلك وجود ادبي متين قبل ان يتصلوا بالفرس واليونان . وفي هذا قضاء على اوهام من زعموا (ويريد بهم مرسيه وطه حسين) ان اول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الاصل ، وان العرب لم يكونوا يعرفون من قبل غير الخطب والاسجاع والامثال . »

ثم يقول الملخص ان الدكتور مبارك عرض بد ذلك « للزخرف » الانثاني ، فزعم ،

خلاقاً لمربيه وطه حسين ، ان الزخرف منصر اصيل في اللغة العربية . والاول براه دخيلاً فيها عن طريق القرس ، والثاني عن طريق اليونان .

وشاهد زكي مبارك على ذلك القرآن ايضاً فهو مفعم بالزخرف والصنعة المحكمة التي تدل على ان المخاطبين بها وهم العرب يعرفون ما هي الكتابة الجيدة والأسلوب الجذاب . ثم اشار الدكتور الى ان البحث عن زخرف القرآن من اي جهة اتصل به هو بحث خطر : لان الرأي العام الاسلامي لا يسمح بدرس القرآن درساً تحليلياً يبين ما فيه من العناصر العربية الاصيلية والعناصر الدخيلة . . .

ولم يكتب الدكتور بما سرّ من امر « الزخرف » بل تمداه الى العلوم العربية كالتحقيق والبلاغة والمروض والبديع ، فذهب الى انها اصيلية في لغة العرب بدليل وجودها في القرآن ولم تحدث في القرن الاول والثاني كما ظنه مؤرخو الآداب العربية . اذ لا يعقل ان يظهر كتاب كالتقرآن بين قوم لم يفكروا في الفصاحة والمروض والتقد وطرائق التمجيد ؛ فالتقرآن ظهر في لغة تجاوزت طور الطفولة . واربابها المتكلمون بها لم يكونوا من الأمية بحيث وصفوا بل هم متمدون — بثقافتهم الادبية — افهم ما فيه من قواعد البلاغة والساليب البيان قال : بل انا اذهب ابعد من ذلك فأقرر ان الاسلام كان تاجلاً نهضة علمية وادبية وسياسية واخلاقية واجتماعية في الحدود التي كان يستطيعها العرب . فالاسلام لا يتصور ان يكون نقل العرب من ظلمات الى نور ، بل من نور الى نور أتمّ لكن نورهم الاول لم تصل اليها صورته المختلفة . لاقى الاسلام من المعارضة آلاف المصائب افيمكن الاقتناع بأنه لم يُقل في مقام تلك المعارضة سوى ما نقل اليها من الخطب والرسائل ؟ اين السنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟ واين ما قاله الصحابة في الرد على خصومهم ؟ وكل ما نقل اليها لا يصف حياة العرب العقلية فلا بد أن يكون هناك آثار ونصوص اندثرت ولو بقيت لفقها اسراراً حجة من حياة العرب العقلية وثقافتهم الادبية ومبلغ « الزخرف » الذي كانوا يزيتون به لقتهم .

ثم اشار الدكتور الى ان ضياع آثار الجاهلية كان بالاسلام . وضياع آثار

الاسلام كان مجرّوب الردة حتى كاد القرآن نفسه يتلاشى لولا ما فعله ابو بكر من جمه وتدوينه . فلمرب الجاهلية علوم ادبية كانوا يحدقونها قبل ان اتصلوا بالقرس والروم في المهد المباسي : فاذا استكثر المسترقون ، ومن لف لفهم من أدبائنا ، على ابي الاسود الدثلي ان يكون هو اول من فكر في وضع علم النحو فانا استقل ان يكون هو المفكر الاول . بل اول من فكر هم عرب الجاهلية الذين عرفوا النحر وغيره من العلوم الادبية . وما قلته انحمل تبسته والدفاع عنه وارجو ان يكون له اثر في فهم البيئة القديمة التي نزل فيها القرآن والتي سورها خطأ عصر الجهل وهي في رأبي عصر معرفة ونور .

ثم استشهد الدكتور بكلام لابن فارس يتنم منه انه كان للعرب معرفة بالنحو والمروض واصول اللغة وقواعد الكتابة . وهو على الجملة يرى ان العلوم العربية . كانت معروفة قبل الاسلام . وما حققه الدكتور مبارك في مقالته هذين يكن تلخيصه هكذا :

- ١ - كان لعرب الجاهلية نثر فني .
- ٢ - زخرف الفن الذي كان في نثرهم اصيل فيه لا دخيل .
- ٣ - آثار النثر الجاهلي ونصره لم يصل اليها منها الا النذر القليل المشكوك في صحته .
- ٤ - القرآن هو وحده الاثر العربي الموثوق به الذي صور لنا النثر الفني الجاهلي .
- ٥ - القرآن كما صور لنا نثر الجاهلية دلنا على انه كان لهم حياة عقلية وعلوم لغوية .

هذه تحقيقات الدكتور تبارك كما تحمها كاتب المجلة الدمشقية . وقد نشرناها لندل على اعتماد بعض الاوساط الادبية في مصر لاثارة الضجّات والرغبة في المفاجآت . والّا لما كان في هذا البحث الادبي ما يتطلب تلك الضوضاء ، اللهم مآلة القرآن الذي اعتبره الدكتور اثراً ادبياً فحسب . على انه تنصل من التهمة الدينية بافصاحه عن قصده من ذلك كما لحصته المجلة المذكورة . فلم يبق اذاً الا البحث الادبي وليس فيه ما يدعو الى الاسترهاب ، ولا ما يبرر موقف الهجوم الشديد الذي يقفه الدكتور من الباحثين الذين تقدموه . فانا لا نعرف عالماً مدققاً قال بانه لم يكن لعرب الجاهلية نثر فني ، بل جمهور المحققين على القول انه لم يصلنا عن عرب الجاهلية ما يستحق الذكر من آثار النثر الفني . وهذا قول الدكتور في تحقيقه ايضاً .

ثم ان الكاتب يميز بين « النثر الفني الجاهلي » والمطب والامثال . فان اراد بذلك تمييزاً كميّاً اي انه قد يكوزن من آثار النثر الجاهلي الفني غير المطب والامثال التي وصلت اليه ، كان على حق . وان اراد بذلك تمييزاً كيفياً بمعنى ان النثر يختلف عن المطب والامثال ، لكان قوله بحاجة الى تعقّب شديد ، لان المطب والامثال من نوع النثر ايضاً . وقد حدّد النثر الفني قائله : « هو ما يلجأ اليه الرجل لاداعة فكرة او دفع شبهة او ايضاح مشكلة » وهو تعديد واسع يشمل المطب والامثال ، بل يشمل أكثر من ذلك حتى انه يتناول جميع انواع التمييز . اما كون تلك المطب والمواظ وما اليها من اسجاع الكهان « لا تكفي لتعيين اساليب النثر الجاهلي » فصحيح . بيد انها تدلّ على وجود اساليبها هي في ذلك النثر . ولا يضير هذه الدلالة كون أكثر تلك النصوص موضوعة في العصر الاموي ، كما يرى الدكتور ، فان الواضحين انفسهم ، ان صحّ هذا الرأي ، جروا على امثلة كانت قديمة معروفة . واما مسألة « الزخرف » فهي من متطلبات الصناعة الفنية في كل ادب وفي كل لغة . ولا حاجة لان يكون هناك تأثير اجنبي في تلك اللغة ، كما يئنه الدكتور . واذا تقرّر ان العرب الجاهليين عرفوا اساليب النثر الفني ، وهو ما نسميه « بالانشاد » في المقال التالي ، فقد رجح انهم استعملوا محمّات هذه الاساليب التي تجسّمها كلمة « الزخرف » والتي تظهر من عناصر « الانشاد » كما سنرى . ولكن لا ينتج من هذا انهم استخرجوا قواعد هذا « الزخرف » بما فيه من بديع منوي ولفظي فاخذوا بتطبيقها في انشائهم كمن يطبق اليوم مبادئ البيان وقواعد البلاغة . ماذا ما يمنح اليه الدكتور ، او على الاقل ما ينسب اليه ملخص البحث اذ يجمله بقرّ « ان عرب الجاهلية عرفوا النحو والعلوم الادبية » . وهو تفرّف ظاهر ان اردنا به سرفرة العرب لنظريات النحو ونظريات تلك العلوم . لان الجاهليين كانوا في عصر الادب الشفهي الذي قد يبلغ ارقى درجات الفن احياناً ، ولكنه يتقدّم ضرورة عصر الادب الكتابي الذي يتفرّغ فيه العلماء لجمع الآثار القديمة وتبويبها والامثلة العامة منها ، واستخراج القواعد الادبية واللمية للنثر والنظم . وهو عصر لم يتفرّق اليه العرب الآبد الاسلام . مما لا شكّ فيه ان العرب طبّقوا النحو والمروض واصول اللغة وقواعد الكتابة في مناسخم الفكرية . ولكنهم لم يطبّقوا ذلك عن اقرار سابق لهذه القواعد ، اي لم يدرّسوا هذه القواعد اولاً ليطبّقوها . بل جروا على فطرصهم ومبلغ تصورهم للفن في عصر لم تكن تستعمل فيه الكتابة لتدوين الآثار الفكرية . وكان شأنهم في ذلك شأن جميع ارباب الادب الشفهي من يونان وفرنجة وعبرانيين . فهذا المعنى ، وبه وحده ، يمكن القول ان الجاهليين « كان لهم معرفة بالنحو والمروض واصول اللغة وقواعد الكتابة » .

هذا في ما خصّ اللغتين الثانية والحامسة من تعميمات الكاتب . اما الثالثة والرابعة فواضحتان . وان كان للدكتور زكي مبارك من فضل في هذا البحث كله فهو اشارته الى ما يفيد القرآن في درس مسألة « النثر الجاهلي » .

وبعد فان لنا في الموضوع رأياً قد يكون في ذكره بعض الفائدة لمن يجرب حلّ هذه النملة الناضجة من ادبنا . وما نحن ننشره في المقال التالي .